

العدمية في رواية (الآباء والبنون) لإيفان تورغينيف

مازن الناصر*

(الإيداع: 16 كانون الأول 2025، القبول: 25 آذار 2026)

الملخص:

يحاول الروائيون في رواياتهم طرح قضايا إشكالية تخص الوجود الإنساني، وتدلل على مواقفهم الفكرية ورؤيتهم الأدبية، وعلى هذا الأساس، قدّم الروائي الروسي (إيفان تورغينيف) في رواية (الآباء والبنون) إشكالية تتعلق بتيارٍ فكريٍّ يقوم على انتقاد الحياة الإنسانية، ورفض ما فيها من قيم ومبادئ وعلاقات اجتماعية. وقد عُرف هذا التيار بالعدمية.

وقد تجلّت العدمية في (الآباء والبنون) من خلال شخصية (بازاروف) التي اتخذت من السخرية وسيلةً تعبيريةً للدلالة على الرفض.

يبدأ البحث بمقدمة تشير إلى نشأة العدمية في الأدب الأوروبي، وينتقل بعد ذلك إلى دراستها في رواية (الآباء والبنون) مُبيّنًا تجلياتها، ثم ينتهي بخاتمة تبيّن أبرز نتائجه، إذ خلص البحث إلى أنّ العدمية قد تجسّدت في رفض الزواج، والعادات الاجتماعية، والقيم الإنسانية، وقد جسّد الروائي (تورغينيف) هذا الرفض من خلال حوارات شخصية (بازاروف) ومناقشاتٍ مع شخصية (بافل بيتروفيتش) التي برزت بوصفها طرفًا معارضًا للفكر العدمي، ومُتمسكًا بالمبادئ والقيم.

الكلمات المفتاحية: العدمية، تورغينيف، الأدب الأوروبي، الرواية، بازاروف، بافل، أدوينتسوف.

*دكتوراه – اختصاص دراسات أدبية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية

"Nihilism in Ivan Turgenev's (Fathers and Sons)

Dr. Mazen al-Nasser*

(Received: 16 December 2025, Accepted: 25 March 2026)

Abstract:

Novelists attempt to address problematic issues concerning human existence in their works, reflecting their intellectual stances and literary vision. Based on this premise, the Russian novelist Ivan Turgenev, in his novel *Fathers and Sons*, presented a problem related to an intellectual current that criticizes human life and rejects its values, principles, and social relationships. This current became known as nihilism.

Nihilism is manifested in *Fathers and Sons* through the character of Bazarov, who uses irony as a means of expressing his rejection. The research begins with an introduction that points to the origin of nihilism in European literature, and then moves on to studying it in the novel (Fathers and Sons), showing its manifestations, and then ends with a conclusion that shows its most prominent results, as the research concluded that nihilism was embodied in the rejection of marriage, social customs, and human values, and the novelist (Turgenev) embodied this rejection through the dialogues of the character (Bazarov) and his discussions with the character (Pavel Petrovich), who emerged as an opponent of nihilistic thought, and an adherent to principles and values.

Keywords: Nihilism, Turgenev, European literature, novel, Bazarov, Pavel, Adwittsova

مقدمة:

ظهرت العدمية في الأدب الأوربي في القرن السابع عشر، ثم لاقت رواجاً كبيراً في القرنين التاسع عشر والعشرين نتيجة إحساس الإنسان الأوربي بعثية الحياة الإنسانية، وإدراكه أنَّ الإنسان غير قادر على أن يكون مركزاً للكون، ولا سيما بعد اندلاع الحربين العالميتين.

وقد كان الروائي الروسي (إيفان تورغنيف) واحداً من الأدباء الأوربيين الذين تناولوا العدمية في رواياتهم، وذلك في روايته (الآباء والبنون) التي تعدُّ من الروايات المهمة في الأدب العالمي لتجسيدها الصراع بين الآباء والأبناء من جهة، والصراع الفكري بين العدمية والطبقات الاجتماعية المحافظة على تقاليد الموروثة، ولا سيما الطبقة الأرستقراطية من جهة أخرى.

أسباب البحث:

للبحث أسباب كثيرة، منها ما يتعلق بالمكانة الكبيرة التي حظي بها الروائي (تورغنيف) في الأدب العالمي عموماً، والروسي خصوصاً، ومنها ما يتعلق بقلّة البحوث العربية التي تناولت رواياته، ومنها ما يرتبط بالرغبة في تتبع تجليات العدمية في رواية (الآباء والبنون).

هدف البحث:

يسعى هذا البحث إلى تعريف مفهوم العدمية، وتتبع تجلياتها في رواية (الآباء والبنون)، والكشف عن تحدياتها في المجتمع الروسي.

أسئلة البحث:

- 1- ما مفهوم العدمية ؟
- 2- ما أسباب نشوء العدمية في الأدب الأوربي ؟
- 3- كيف تجلّت العدمية في رواية (الآباء والبنون)؟

حدود البحث:

تتصوي رواية (الآباء والبنون) للروائي (تورغينيف) ضمن الأدب الروسي في القرن التاسع عشر، وعلى ذلك سيكون الحدّ الزمني هو القرن التاسع عشر، وسيقتصر الحدّ المكاني على البلدات والمدن الروسية التي جرت فيها أحداث الرواية، أما الحدّ الموضوعي فهو العدمية بوصفها تياراً فكرياً برزت تجلياته في الرواية.

منهج البحث:

انتهج البحث منهجاً تحليلياً يقوم على تتبع أفعال شخصية (بازاروف) وأقوالها، وحواراتها مع الشخصيات الروائية الأخرى، ما يسهم في الكشف عن الأسس التي استندت إليها الشخصية في رفضها المبادئ والقيم الإنسانية.

أولاً: مفهوم العدمية: العدمية مصدر صناعي مشتق من كلمة (عدم) وتعني: لا شيء. يقول صاحب اللسان: العدم: " فقدان الشيء وزهابه.¹

والعدمية Nihilism تعني أنه ليس ثمة شيء ذو قيمة، وهي الإنكار المطلق للقيم الأخلاقية والمبادئ الدينية.²

تري العدمية أن العالم عديم القيمة، خالٍ من أي مضمون، ولا معنى له. يقول نيتشه: "العدمي إنسان يرى أن العالم، مثلما هو كائن، ما كان له أن يوجد، وأن العالم، مثلما ينبغي أن يكون، غير موجود."³

ويقول في موضع آخر: "لقد حصل التناقض بين العالم الذي نبجله والعالم الذي نعيشه، والذي نشكّله نحن. ولا يبقى أمامنا سوى أمرين، إما القضاء على تجيلنا، وإما القضاء على أنفسنا بأنفسنا. وهذه الحالة الأخيرة هي العدمية."⁴

ترد نانسى هيوستن ظهور العدمية في الأدب الأوربي إلى القرن السابع عشر بعد الانتقال تدريجياً "من عالم مؤسس على الإلهي والخارق للطبيعة إلى عالم طبيعي وبشري حصرًا."⁵ إذ أدرك الإنسان الأوربي أنه لم يعد مركز الكون، فبدأ الإحساس بعبثية الحياة، ولا جدواها "وبدأت بعض الأصوات الأدبية تعبّر عن هذا الوعي التراجيدي باعتباطية الوجود الإنساني."⁶ ومنهم كالديرون (Calderon⁷) (1600-1681) وشكسبير (Shakespeare)⁸ (1564-1616) الذي نسب إلى ماكبث قوله: "من هذه اللحظة لن أجد شيئاً يستحق أن يعيش المرء من أجله.. ما في الحياة غير دُمى ولعب..."⁹

¹ لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ، مادة (عدم).

² Oxford Advanced Learner: (Oxford University, 7th Edition 2005) p:1029.

³ إرادة القوة، فريدريك نيتشه، محاولة لقلب كل القيم، ترجمة وتقديم: محمد الناجي، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء - المغرب، طبعة 2011، ص221.

⁴ المصدر نفسه: ص11.

⁵ أساتذة اليأس، النزعة العدمية في الأدب الأوربي، نانسى هيوستن، تر: وليد السويركي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي - الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2012، ص21.

⁶ المرجع نفسه، ص21-22.

⁷ أحد أهم كتاب المسرح في إسبانيا في القرن السابع عشر، من أهم مسرحياته: (الحياة حلم)، يُنظر: قصة الحضارة، ول ديورانت، تر: محمد علي أبو درة، دار الجبل، بيروت - لبنان، ط1، 1992، مج7، ج2، ص135.

⁸ من أهم الكتاب المسرحيين وأشهرهم في العالم، كتب ستاً وثلاثين مسرحية، منها: هاملت (1600) وغطيل (1604) والملك لير (1608). يُنظر: تاريخ الآداب الأوربية (النهضة)، مجموعة من المؤلفين، تر: صياح الجهم، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق - سورية، ط2، 2013، 196/2-197. ويُنظر أيضاً: مجمل تاريخ الأدب الإنكليزي، إيفور إيفانس، تر: زاهر غبريال، الهيئة المصرية العامة

للكتاب، القاهرة - مصر، ط1، 1996، ص87.

⁹ ماكبث، وليم شكسبير، تر: حسين أحمد أمين، دار الشروق، القاهرة - مصر، ط1، 1994، ص59-60.

تشاؤمه، ورفضه الحياة، يقول فيها: "ابقَ على حالك، لا تدخلْ قفصَ الزَّواجِ أبداً، لا تعطفْ على أحد... فالعدو الأكبر هو الحياة نفسها... لن أهب الحياة لطفلٍ أبداً، أبداً. إنها فكرةٌ رهيبَةٌ. سألعنُ نفسي إذا أصبحتُ أباً. فليضمحلْ جسدي ويفنْ قبل أن أنقل تفاهات الوجود"¹.

وتتبدى العدمية أيضاً في أشعار بودلير² (Baudelaire) (1821-1867) ومنها قوله في قصيدة الهاوية:

وأ أسفاه! كل شيء هاوية: الفعل، والرغبة، والحلم

والكلام !

وعقلي، المسكون دائماً بالدُّوار

يحسُّ العدم على البلادة

آه! لا مهرب أبداً من الأرقام والكائنات!³

غير أنَّ العدمية لم تنتشر في أوروبا بوصفها مدرسةً فكريَّة لها أعلامها، ومنظورها إلا بعد سنة 1880، بعد النجّاح الكبير الذي حققته فلسفة شوبنهاور⁴ (Schopenhauer) (1788-1860)، وذيوع فلسفة نيتشه (Nietzsche)⁶ (1844-1900) وانتشارها في القرن العشرين، فضلاً عما شهدته أوروبا من مجازر دموية، وأحداثٍ مأساوية بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية؛ إذ أدرك الإنسان الأوروبي أنَّ مصيره محكومٌ بعدوانية الإنسان، وعبثية الحياة الإنسانية، وخصوصاً أنَّ فكرة موت الإله التي جاءت بها فلسفة نيتشه قد وجدت طريقاً لها في الفكر الأوروبي، وأدبه، وهذا ما عبّرت عنه نانسي هيوستن في حديثها عن أسباب ظهور الفكر العدمي في الثقافة الأوروبية، تقول: "لقد أدت المجازر، ذلك الإنتاج الصناعي للموت، بالضرورة، إلى فكرة أنَّ الحياة عبثية، فمن المستحيل تأمل تلالٍ من الجثث ومواصلة الشّعور بالحماية من خلال فكرة وجود إله، أو الإيمان بمصير فردي، أو معنى متعال".⁷

¹ غوستاف فلوبير، فيكتور برومبير، تر: غالية شملي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، د. ت. ط، ص 14.

² شاعر فرنسي، يعد من رواد الحركة الرمزية في فرنسا في القرن التاسع عشر، عُرف عنه نزعتة السوداوية، ورفضه الأخلاق، والقيم البرجوازية، يُنظر: شارل بودلير شاعر الخطيئة والتمرد، عمر عبد الماجد، دار البشير، عمان-الأردن، ط1، 1997، ص 15-24. وينظر: ثورة الشعر الحديث من بودلير إلى العصر الحاضر، عبد الغفار مكاي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة-مصر، ط1، 1972، 62/1.

³ الأعمال الكاملة، شارل بودلير، تر: رفعت سلام: دار الشروق، القاهرة- مصر، ط1، 2009، ص 546-547.

⁴ يُنظر: أساتذة اليأس، النزعة العدمية في الأدب الأوروبي، نانسي هيوستن، ص 24.

⁵ فيلسوف ألماني، عُرف بفلسفته التشاؤمية، والنزعة العدمية، رأى أن الحياة شرٌّ مطلق، يُنظر: شوبنهاور، عبد الرحمن بدوي، سلسلة خلاصة الفكر الأوروبي، دار القلم، بيروت- لبنان، د. ت، ص 257.

⁶ فيلسوف، وشاعر ألماني، له أثر كبير في الثقافة الغربية، وأثارت فلسفته جدلاً كبيراً بين الفلاسفة، ومفكري العصر المعاصر حول الحداثة وما بعد الحداثة. ينظر: نيتشه، سلسلة خلاصة الفكر الأوروبي، عبد الرحمن بدوي، نيتشه، وكالة المطبوعات، الكويت، ط5، 1975، ص 145.

⁷ أساتذة اليأس، النزعة العدمية في الأدب الأوروبي، نانسي هيوستن، ص 27.

كل ذلك أسهم في بروز العدمية وانتشارها في أعمال مبدعي أوروبا في القرن العشرين، مثل: صمويل بيكيت، وإميل سيوران (Emil.Cioran)¹ (1911-1995)، وتوماس برنهارد (Thomas.Bernhard)² (1931-1989)، وغيرهم ممن ظهرت في أدبهم ملامح العدمية ومظاهرها التي اختلفت وتتنوعت تبعاً لاختلاف ظروفهم، وأحوالهم، وطرائق التعبير عنها في أدبهم.

ثالثاً: العدمية في رواية (الآباء والبنون) لـ تورغينيف (Tourgueniev) (1818-1883):³

مهّد الروائي (تورغينيف) في روايته (الآباء والبنون) للفكر العدمي من خلال الحوار بين الأخوين (نيكولاي بيتروفيتش) و(بافل بيتروفيتش) وأركادي، وفيه تعريف للعدمية، وإشارة إلى الأسس التي تستند إليها:

" قال نيكولاي بيتروفيتش: مصطلح نهلستي، على ما أظن، مشتق من الكلمة اللاتينية (نيهيل) (Nihil) أي: لا شيء. عدم. وبالتالي، فإن هذه الكلمة تعني إنساناً يرفض كل شيء. أليس كذلك؟

بافل بيتروفيتش: الأصح: لا يحترم شيئاً.

أركادي: إنه الإنسان الذي يعالج كل شيء من وجهة نظر انتقادية.

بافل بيتروفيتش: أليس ذلك سواء؟

أركادي: كلا، ليس سواء. فالنهلستي هو الإنسان الذي لا يحني رأسه أمام أية شخصية مرموقة، ولا يتقبل أي مبدأ دون تمحيص مهما كان الاحترام الذي يحظى به ذلك المبدأ.⁴

وبناءً على ذلك، يظهر بأن العدمي هو الإنسان الذي يتبنى مبدأ الرّفْض، وقد تجسّد هذا المبدأ في شخصية (بازاروف)، وهو شاب يدرس العلوم الطبيعية، غير مبالٍ بالتقاليد الاجتماعية الرسمية، يسخر من كل شيء، ويجيد "كسب ثقة الناس الأدنى منه رغم استهائته بهم، وعدم تسامحه معهم إطلاقاً".⁵ ويقف موقفًا عدائياً تجاه المشاعر الإنسانية، فلا يبوح بما يحس به من عواطف إيجابية، ويرى في " الكلام على نحو جميل أمرٌ معيب"⁶، ويتخذ من الرّفْض مبدأ له، يقول لصديقه أركادي: " إنني متمسكٌ باتجاه الرّفْض، وذلك بحكم الإحساسات. فالرّفْض يبعثُ السرور في نفسي، ودماعي

¹ روماني الأصل، فرنسي الإقامة، ولد في رازيناري إحدى القرى النائية بمنطقة ترانسلفانيا التي كانت آنذاك تحت الحكم الهنغاري النمساوي، من كتبه: مساوي أن يكون المرء قد ولد (1973)، والتمزق (1979)، وعلى ذرى اليأس (1990). يُنظر: المعنى والغضب، مدخل إلى فلسفة سيوران، حميد زنار، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط2، 2009، ص9. ويُنظر أيضاً: لو كان آدم سعيداً: إميل سيوران، ترجمة وتقديم: محمد علي اليوسفي، أزمنة للنشر، عمان- الأردن، ط2، 2014، ص11-16.

² روائي ومسرحي نمساوي، غلبت على أعماله النزعة التشاؤمية، من أهم أعماله: احتفال ليلة عيد ميلاد بوريس (1968)، قوة العادة (1974)، والهدف (1981). يُنظر: مقدمة احتفال ليلة عيد ميلاد بوريس، توماس برنهارد، تر: أحمد سخسوخ، منشورات وزارة الثقافة المصرية، القاهرة- مصر، د.ت، ص13.

³ روائي روسي، تتحدث رواياته عن مراحل الحركة الاجتماعية في روسيا من خمسينيات القرن التاسع عشر حتى الثمانينات من القرن نفسه. من رواياته: رودين (1855)، وكر النبلاء (1859)، في العشية (1860)، الآباء والبنون (1862) يُنظر: الرواية الروسية في القرن التاسع عشر، مكارم الغمري، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ع 40، نيسان 1981، ص106.

⁴ الآباء والبنون، إيفان تورغينيف، تر: خير الضامن، دار المدى، بغداد، ط1، 2014، ص250.

⁵ المصدر نفسه، ص245.

⁶ المصدر نفسه، ص245.

مبني على هذا الأساس، ذلك كل شيء فما الذي يجعل الكيمياء تعجبني؟ وما الذي يجعلك تحب التفاح؟ ذلك أيضًا بحكم الإحساسات، فالأمر سواء.¹

وقد تجلّى الرّفص في شخصية (بازاروف) في:

1- رفض الزواج:

يقف (بازاروف) موقفًا عدائيًا من الزواج، وقد تبدى ذلك في أكثر من موضع في الرواية، منها سخريته من صديقه (أركادي) الذي أخبره برغبته بأن يتزوج والده² من (فينيتشكا) زواجًا رسميًا، فيقول له (بازاروف): "ما أعظم نبلنا! إنك لا تزال تعلق أهمية على الزواج."³ ويبين لصديقه في موضع آخر بأنه يرفض الزواج، وأن حياة العزوبة تناسبه، وتتسم مع فكره العدمي⁴ القائم على رفض استمرارية الحياة الإنسانية، إذ يعتقد أصحاب هذا الفكر بأن المرأة تجسد "الوجود الجسدي والحسي". إن الأم هي من (يقذف) بنا في الزمن، وفي العالم، والولادة التي يلومونها عليها هي الشيء الوحيد الذي يُعترف بأنّها وهبته لهم. المرأة تقيد حرية الرجل، تستغل جمالها لتستدرج الرجل إلى حيث لا يريد، إلى التنازل الذي هو أمر مقزز.⁵

وعلى هذا الأساس، ليس بغريب أن تتضمن الرواية إشارات كثيرة تدل على ما يكنه (بازاروف) من كره تجاه المرأة التي لا يرى فيها إلا غاية لإشباع رغباته، وما يؤكد ذلك قوله لـ (أركادي):

"إذا أعجبتك امرأة فحاول أن تحصل منها على مبتغاك، وإذا لم يكن هذا ممكنًا فلا داعي لشيء، حول وجهك عنها، فالكون غير متوقّف عليها."⁶

ويبرز كره (بازاروف) للمرأة واستخفافه بها في قوله لنفسه بعدما شعر بارتباك عند لقائه بـ (أودينتسوف): "يا للعجب! ارتعبت من امرأة!"⁷ وعلى ذلك، فإن موقفه من المرأة يبدو مشابهًا لموقف شوبنهاور ونييتشه منها، إذ رأى شوبنهاور أن المرأة "بحكم طبيعتها، مقدّر عليها أن تطيع. وإن الذي يجعل النساء بشكل خاصّ قادرات على رعاية طفولتنا الأولى وتربيتها، أنهنّ بأنفسهنّ صبيانيات، وعديماث الجدوى ومحدودات، يبقين كل حياتهنّ أطفالاً كباراً، هو نوع وسيط بين الطفل والرجل"⁸ أمّا نييتشه فقد وصف في كتابه (هكذا تكلم زرادشت) المرأة بألفاظ تحط من شأنها، وتقلل من قيمتها⁹

ولعل خير ما يؤكد موقفه العدائي من المرأة خيبته بعد لقائه بـ (أودينتسوف)، يقول (بازاروف): "إنّ قلع البلاط من الشارع أهون من السماح لامرأة أن تفرض نفسها قيد أنملة. فذلك كله مجرد سخافة صرف.. وسوف لن تصدقني إذا

¹ المصدر نفسه، ص 293 - 294.

² والد أركادي هو (نيكولاي بيتروفيتش) الذي يقيم علاقة غير شرعية مع (فينيتشكا) وقد أنجب منها ولداً.

³ الآباء والبنون، إيفان تورغينيف، ص 275..

⁴ ينظر: المصدر نفسه، ص 466.

⁵ أساتذة اليأس، النزعة العدمية في الأدب الأوروبي، نانسي هيوستن، ص 20.

⁶ الآباء والبنون، إيفان تورغينيف، ص 341.

⁷ المصدر نفسه، ص 320.

⁸ شوبنهاور: العالم مثل مزحة سيئة، عبد الرحمن إكيدر، مجلة فكر الثقافية، ع 21، نوفمبر 2017 - يناير 2018، الرياض - السعودية، ص 53.

⁹ هكذا تكلم زرادشت، فريدرش نييتشه، تر: علي مصباح، منشورات الجمل، بغداد - العراق، ط 1، 2007، ص 118.

قلت لك الآن: لقد كنا في مجلسٍ نسائيٍّ، وكان ذلك أمرًا مُسرًّا، ولكن ترك مثل هذا المجلس كالاستحمام بماءٍ باردٍ في يومٍ حارٍ. فليس لدى الرجل وقتٌ لممارسة هذه التفاهات. على الرجل أن يكون شرسًا"¹

على الرغم من أن (بازاروف) قد شعر بسعادةٍ كبيرةٍ عند لقائه بـ (أودينتسوف) إلا أنه اتخذ قرارًا بالابتعاد عنها لكي لا يشعر بضيقه أمامها، ولأنه يرفض الرومانسية التي ينظر إليها بوصفها تعبيرًا عن حبٍ مثاليٍّ مقيتٍ، وتجسيدًا للتفاهة والحماسة²، وهنا تبرز إشكالية (بازاروف) وصراعها النفسي، إذ كان يشعر عند لقائه بـ (أودينتسوف) بارتباكٍ أمام فتنتها، ويغضبُ في الوقت نفسه "عندما يشعر بوجود الرومانسية فيه."³

وتأسيسًا على ذلك، يتضح أن كره (بازاروف) للمرأة وموقفه العدائي منها مرده إلى رفض الزواج الذي يفضي إلى استمرارية الحياة الإنسانية، وخصوصًا أن أصحاب الفكر العدمي لا يجدون حرجًا في الاعتراف بأن الإنسان كائنٌ شريرٌ،⁴ وليس له أفضلية على الحيوان، ولا يختلف عنه إلا في بعض الخصائص مثل السير على القدمين كما عبّر عن ذلك (بازاروف) في قوله لشابٍ يسأله عن فائدة تشريح الضفادع: "أشْرَحُ الضفدع وأراقبُ ما يجري في داخلها، وبما أننا، أنا وأنت، نفس الضفادع بفارقٍ واحدٍ هو أننا نسير على رجلين، فإنني سأعرفُ ما يجري في داخلنا."⁵

2- رفض العلاقات الاجتماعية:

تجلى رفض (بازاروف) العلاقات الاجتماعية والاستهانة بتقاليدها وعاداتها من خلال ما تضمنته البنية السردية للرواية من أحداثٍ ومواقف تتعلّق بشخصية (بازاروف) وتصرفاته، ومن ذلك أنه لم يفكر في العيش مع أبيه وأمه، إذ لم يزرهما إلا بعد أن ساءت علاقته بـ (بافل بيتروفيتش) واضطراره إلى مبارزته. وعلى الرغم مما يكنه له والداه من حبٍ وتقدير واحترام وحرصهما على معاملته بطيبة وحنان إلا أنه كان يقابل معاملتهما له ببرودٍ شديدٍ، ويرفض أن يعتنيا به في أثناء مرضه الذي أفضى، في نهاية الرواية، إلى موته، وفي ذلك ما يشي بفكره العدمي، فجاءت علاقته بعائلته محكومةً بإيمانه بذاك الفكر، وخصوصًا أنه يعتقد بأن الإنسان قادرٌ على تنشئة نفسه بنفسه بعيدًا عما تحمله العائلة من مبادئ وأفكارٍ وقيم، وما يدلُّ على ذلك قوله لصديقه (أركادي): "على كلِّ فردٍ أن يربي نفسه بنفسه، كما فعلتُ أنا."⁶

إن الاعتقاد المتمثل في التخلي عن العائلة، والإيمان بقدرة الفرد على تربية نفسه بنفسه قائمٌ على أساس أن العائلة تعتمد على تعليم أبنائها قيمها الاجتماعية، ومبادئها الأخلاقية، ومعتقداتها الدينية، وما ذاك عند العدمي إلا زيفٌ وتفاهةٌ، يقول (بازاروف): "أما العلل الأخلاقية فسببها التربية الفاسدة ومختلف التفاهات التي تتغذى بها أدمغة البشر منذ الصغر. سببها، باختصار، حالة المجتمع البشعة."⁷

وبناءً على ذلك، يظهر بأن طبيعة علاقة (بازاروف) مع عائلته محكومةً بفكره العدمي، فجاءت تصرفاته تجاه والديه منسجمةً مع رؤيته العدمية، ولم يقتصر الأمر على ذلك، وإنما تعداه إلى السخرية من (أركادي) الذي بدا متعاطفًا مع عمه

¹ الآباء والبنون، إيفان تورغينيف، ص368.

² الآباء والبنون، إيفان تورغينيف، ص341.

³ المصدر نفسه، ص341.

⁴ يقول بازاروف لصديقه أركادي: "مهما افترينا على الإنسان فهو في الواقع يستحق أكثر من ذلك بعشرين مرة". ينظر: الآباء والبنون، إيفان تورغينيف، ص394.

⁵ الآباء والبنون، إيفان تورغينيف، ص245.

⁶ المصدر نفسه، ص263.

⁷ المصدر نفسه ص230.

(بافل بيتروفيتش)، ولذلك يلومه (بازاروف) ويسخر منه بقوله: "أها ! ثارت فيك مشاعر القربى؟! لقد لاحظت أنها راسخة في الناس بتصلب وعناد. فالإنسان مستعد للتخلي عن كل شيء، ولمفارقة كل الأوهام، ولكن الاعتراف، مثلاً، بأن أخاه الذي يسرق مناديل الغير لص إنما هو فوق طاقته. وبالفعل، فهل يمكن أن لا يكون أخي عبقرياً إذا كان أحملاً لي بالذات؟"¹

يستند (بازاروف) في لومه (أركادي) إلى أساس أن مشاعر المرء تجاه عائلته قد تحول بينه وبين الموضوعية، ويمكن أن يفهم من ذلك أن العدمي يعتقد بالتجرد العقلي الذي ينهض على رفض كل شيء غير خاضع للتجربة والإثبات.

3- رفض المبادئ الإنسانية:

تبرز المبادئ الإنسانية في رواية (الآباء والبنون) من خلال شخصية (بافل بيتروفيتش)، وهو رجل ينتمي إلى الطبقة الأرستقراطية، ويمثل مبادئها وقيمها في المجتمع الروسي، وعلى هذا الأساس، فإنه يظهر في الرواية بوصفه طرفاً نقيضاً للعدمية التي تجسدها شخصية (بازاروف).

وانطلاقاً من ذلك، فإنه لا يمكن الحديث عن رفض (بازاروف) المبادئ الإنسانية بمعزل عن الصراع بينه وبين (بافل بيتروفيتش). وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن صراعهما ليس صراعاً فكرياً بين العدمية والأرستقراطية فحسب، وإنما هو صراع بين الأجيال، ويدل على ذلك عنوان الرواية (الآباء والبنون)، وإشارة (بافل) إلى ذلك الصراع بقوله لأخيه (نيكولاي) في حوارهما مع (بازاروف) و(أركادي):

" أنا واثق من أنني وإيتاك محقان أكثر بكثير من هذين السيدين الصغيرين²، بالرغم من أننا نتكلم بلغة عتيقة بعض الشيء، ولا نمتلك مثل تلك الغطرسة الجسورة... ما أشد كبرياء الشباب الزاهن!"³

يشي هذا المقطع باستهزاء (بافل) وسخريته من جسارة (بازاروف) و(أركادي) وغطرستهما، ومرد ذلك تمسكه بالمبادئ والقيم التي نشأ عليها، واستخفاف بها (بازاروف) واصفاً إياها بأنها زيف، لا تغيد المجتمع الروسي. يبدو من المفيد في هذا السياق أن نستعرض جزءاً من الحوار لنستدل به على رفض (بازاروف) لمبادئ الآباء وقيمهم. يقول (بافل):

" إنني لا أفهمك بعد هذا كله، أنت تهين الشعب الروسي. لا أفهم كيف يمكن عدم الاعتراف بالمبادئ والأصول؟! بأية قوة تعملون؟

قال بازاروف: نحن نعمل مدفوعين بتأثير ما نراه نافعا. وفي الحال الحاضر يُعتبر الرفض أنفع شيء، لذا فنحن نرفض كل شيء؟

كل شيء. "⁴

ولا يتوقف (بازاروف) في حوارهما مع (بافل) عند السخرية من قيم الطبقة الأرستقراطية ومبادئها، وإنما يتعدى ذلك إلى التعبير عن رفضه كل ما يؤمن به المجتمع الروسي، فالتزاهة والصدق والعدل والحرية قيم غير موجودة، وما هي إلا ابتذال، والخرافات تسيطر على عقول الناس⁵، ولذلك كله يرى (بازاروف) أن لا شيء يستحق أن يؤخذ على محمل الجد.

¹ الآباء والبنون، إيفان تورغينيف، ص 296.

² يقصد (بازاروف) و(أركادي)

³ الآباء والبنون، إيفان تورغينيف، ص 293.

⁴ الآباء والبنون، إيفان تورغينيف، ص 285-286.

⁵ المصدر نفسه، ص 289.

ولا يستثني (بازاروف) في رفضه القيم الإنسانية التي تتعلّق بالمشاعر مثل الاحترام، والحبّ، وقد تجلّى ذلك في سخريته من حبّ (بافل) ووفائه لمحبيبته التي ماتت، ليقرر، بعد موتها، العزوف عن الزّواج، يقول (بازاروف) ساخراً من رومانسية (بافل): " عجيبٌ أمرهم هؤلاء الرومانسيين الكهول! إنهم يرهقون جهازهم العصبي إلى حدّ الانفعال."¹ وفي هذا السّياق، لا بدّ من الإشارة إلى أنّ استهانة (بازاروف) بالمشاعر ورفضه القيم الإنسانية مرّدٌ إلى اعتقاده بأنّ إيمان المرء بالقيم، وحرصه على مراعاة مشاعر الآخرين وعواطفهم من شأنه أن يحطّم الإنسان، وقد تبدّى هذا الاعتقاد في الرواية من خلال المشهد الذي رأى فيه (بازاروف) نملة تجرّ ذبابةً، وفي ذلك يقول:

" يا لشجاعة هذه النملة التي تجرّ ذبابةً مُحترّرة! واصلي عملك. فبالرغم من مقاومتها انتهزي فرصةً كونك، كحيوان، تتمتعين بحقّ عدم الاعتراف بمشاعر المواساة، خلافاً للإنسان الذي يحطّم نفسه بنفسه."²

إنّ إصرار (بازاروف) على رفضه القيم والمشاعر هو دلالةٌ على رفضه تحطيم نفسه، وهذا ما يجعله يشعر بالفخر والاعتزاز،³ لأنّ الإنسان الحقيقي لا يكون معنياً بأفكار الآخرين عنه، ويحاول أن يجعل الآخرين "يخضعون له أو يكرهونه."⁴ تجسّد هذه المقولة الأساس الذي يستند إليه (بازاروف) في رفضه القيم والمبادئ الإنسانية التي لا يرى فيها إلّا مجرد حماقة.⁵

إنّ لا مبالاة (بازاروف) بمشاعر الآخرين وقيمهم، ودفعهم إلى كرهه أو الخضوع له أفضى به إلى الاغتراب عن مجتمعه ومحيطه، إذ ما لبث أن انفرط عقد صداقته مع (أركادي)، وانتهى الصّراع الفكري بينه وبين (بافل بيتروفيتش) إلى اضطراره إلى قبول مبارزة الأخير⁶، وقادّه فكره العدمي إلى الابتعاد عن (أودينتسوف) التي أحبّها، لإدراكه بأنّ ما يحسّه من مشاعر تجاهها لا ينسجم مع رفضه المنبثق من عدميته، وهذا ما تجلّى في قوله لـ (أودينتسوف) قبل موته:

" لقد انتهيتُ. وقعتُ تحت العجلة.⁷ ولذا ما كان هناك داعٍ للتفكير في المستقبل. الموتُ شيءٌ قديمٌ، إلّا أنّه يداهم كلّ شخصٍ بشكلٍ جديدٍ.. لم أجبن حتّى الآن... وستحلّ الغيبوبة، ثمّ النّهاية.... فما الذي ينبغي أن أقوله لك... كنتُ أحبّك ! وما كان لهذا الأمر أي معنى في السابق، وليس له أي معنى الآن بالطبع. فالحبُّ مجردُ شكل، أما شكلي أنا فقد أخذ يتفسّخُ."⁸

يبرزُ هذا المقطع مأساوية شخصية (بازاروف) الذي أبدع (تورغينيف) في تصوير معاناتها وصراعها الدّاخلي⁹، وذلك من خلال إبراز التناقض بين فكره المادي المتمثّل بإيمانه بالعدميّة وبين مشاعره الإنسانية التي تجلّت في حبّه لـ (

¹ ينظر: المصدر نفسه، ص242.

² المصدر نفسه، ص391.

³ ينظر: المصدر نفسه، ص391.

⁴ المصدر نفسه، ص393.

⁵ ينظر: المصدر نفسه، ص256.

⁶ انتهت المبارزة بإصابة (بافل) بطلق ناريّ أطلقه (بازاروف)، وقد حملت هذه المبارزة إحياءاتٍ دلاليةً تجسّد الصّراع بين فكرين متناقضين تمثّلا في رفض المبادئ الإنسانية والتّمسك بها. ينظر: الآباء والبنون، إيفان تورغينيف، ص428 وما بعدها.

⁷ وقعتُ تحت العجلة: تعبير مجازي يُقصد به أنّ حياته قد انتهت، إذ تبيّن الرواية أنّ سبب موت (بازاروف) هو عدوى أصابته بمرض التيفوئيد.

⁸ الآباء والبنون، إيفان تورغينيف، ص486.

⁹ يقول تورغينيف في مقالٍ له بعنوان: (بصد الآباء والبنون) فيما يخصّ شخصية (بازاروف) والعدميّة: " استندتُ في تصوير بطلها الرّئيس (بازاروف) إلى شخصيّة حقيقيّة لطبيب من الأقاليم أثار دهشتي وإعجابي (توفي قبيل عام 1860م بقليل) وقد تجسّد في هذا الإنسان الرّائع، في رأيي، تلك البداية التي ولدت للتو، وكانت في دور الاختمار، والتي سُميت فيما بعد بالنهلسيّة (العدميّة) أو الرفض.

أودينتسوفاً)، إذ يثبت الحب أنه ثمة قوى لا إرادية لا يمكن تفسيرها بالعلم المادي وحده، وعلى هذا الأساس، يظهر بأن الفكر العدمي لا يمكن أن يكون حلاً لمواجهة ما يسود الحياة الإنسانية من زيف وفروقات طبقية وغير ذلك من المشكلات الإنسانية.

واستناداً إلى ذلك، يمكن أن يكون فشل (بازاروف) في علاقته العاطفية مع (أودينتسوف) دلالة تعبر عن مأساته، وتدل في الوقت نفسه على إخفاق العدمية، إذ لم تحل فلسفتها القائمة على الرفض والانتقاد دون وقوع معتقها بالحب، وهو الذي ما فتى يسخر منه بوصفه عاطفة رومانسية، فضلاً عن رفضه القيم الإنسانية والمبادئ الأخلاقية¹ التي عدّها أيضاً تجسيدا للرومانسية. ثم يأتي موت (بازاروف) في نهاية الرواية ليؤكد مأساته، وإخفاق العدمية.

وبناءً على ذلك، يظهر بأن الروائي (تورغينيف) قد وظّف الحكاية العاطفية التي عاشها (بازاروف) تحدياً للعدمية، وخصوصاً أنه كان يفخر برفضه الرومانسية والحب المثالي، وقد أشار الراوي إلى ذلك بقوله: "كان بازاروف من أشدّ هواة النساء والجمال الأنثوي، ولكنه نعت الحب المثالي، أو الرومانسي على حدّ تعبيره بالهراء والحماقة التي لا تُغفر".²

وكذلك، استعان الروائي بحدث الموت للإشارة إلى عدم جدوى العدمية في الحياة الإنسانية، وبذلك يكون (تورغينيف) قد وظّف عناصر البنية السردية في إبراز مقولات الفكر العدمي القائم على الرفض.

خاتمة:

خلص البحث إلى النتائج الآتية:

- 1- تجلّت العدمية في رواية (الآباء والبنون) من خلال (بازاروف) الذي قُدّم في بنيتها السردية بوصفه شخصية تشاؤمية تبنت الفكر العدمي القائم على مبدأ الرفض الذي تجسّد في رفض الزواج، والعلاقات الاجتماعية، والمبادئ الإنسانية.
- 2- يستند بازاروف، مثل غيره من العدميين، في رفضه فكرة الزواج إلى مبدأ تشاؤمي وهو عدم جدوى استمرارية الوجود الإنساني.
- 3- عمد الروائي (تورغينيف) في تجسيد رفض (بازاروف) العلاقات الاجتماعية إلى تصوير علاقته بوالديه، إذ بدت علاقته بهما محكومة برؤيته العدمية، إذ كان يقابل مشاعرهما الأبوية بجفاف، وبرود شديد.
- 4- تمثّل رفض (بازاروف) المبادئ الإنسانية من خلال حواراته ومناقشاته مع شخصية (بافل بيتروفيتش) التي برزت بوصفها طرفاً معارضاً للفكر العدمي، ومُتمسكاً بالمبادئ والقيم.
- 5- جسّد علاقته بازاروف بأودينتسوف تحدياً للعدمية، إذ كشف حبه لها عن صراعه النفسي بين عاطفته وفكره العدمي.
- 6- وظّف (تورغينيف) حدث موت (بازاروف) في الدلالة على فشل العدمية في مواجهة إشكاليات الوجود الإنساني.

قائمة المصادر والمراجع:

• المعاجم:

- 1- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ.
- 2- Oxford Advanced Learner: (Oxford University, 7th Edition 2005).

كان تأثير هذه الشخصية على شديد الغاية، ولكنه غير واضح تماماً في الوقت ذاته، فأنا نفسي، في بادئ الأمر، لم أتمكن من فهمه بشكل عميق. ينظر: المقال في نهاية الرواية، ص495.

¹ يقول بازاروف في حوار مع صديقه (أركادي): "ليس هناك مبادئ إطلاقاً، بل هناك الإحساسات، وكل شيء متوقّف عليها. ينظر: الآباء والبنون، إيفان تورغينيف، ص486.

² المصدر نفسه، ص340 - 341.

• الكتب:

- 1- الآباء والبنون، إيفان تورغينيف، تر: خير الضامن، دار المدى، بغداد، ط1، 2014.
 - 2- الأعمال الكاملة، شارل بودلير، تر: رفعت سلام: دار الشروق، القاهرة- مصر، ط1، 2009.
 - 3- إرادة القوة، فريدريك نيتشه، محاولة لقلب كل القيم، ترجمة وتقديم: محمد الناجي، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء- المغرب، طبعة 2011.
 - 4- أساتذة اليأس، النزعة العدمية في الأدب الأوربي، نانسي هيوستن، تر: وليد السويركي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي- الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2012.
 - 5- تاريخ الآداب الأوربية (النهضة)، مجموعة من المؤلفين، تر: صياح الجهم، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق- سورية، ط2، 2013.
 - 6- ثورة الشعر الحديث من بودلير إلى العصر الحاضر، عبد الغفار مكاي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة- مصر، ط1، 1972.
 - 7- شارل بودلير شاعر الخطيئة والتمرد، عمر عبد الماجد، دار البشير، عمان- الأردن، ط1، 1997.
 - 8- شوبنهاور، عبد الرحمن بدوي، سلسلة خلاصة الفكر الأوربي، دار القلم، بيروت - لبنان، د.ت.
 - 9- غوستاف فلوبير، فيكتور برومبير، تر: غالية شملي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، د.ت. ط.
 - 10- قصة الحضارة، ول ديورانت، تر: محمد علي أبو درة، دار الجبل، بيروت - لبنان، ط1، 1992.
 - 11- لو كان آدم سعيداً، إميل سيوران، ترجمة وتقديم: محمد علي اليوسفي، أزمنة للنشر، عمان — الأردن، ط2، 2014.
 - 12- ماكبث، وليم شكسبير، تر: حسين أحمد أمين، دار الشروق، القاهرة- مصر، ط1، 1994.
 - 13- مجمل تاريخ الأدب الإنكليزي، إيفور إيفانس، تر: زاخر غبريال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة - مصر، ط1، 1996.
 - 14- المعنى والغضب، مدخل إلى فلسفة سيوران، حميد زنار، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط2، 2009.
 - 15- مقدمة احتفال ليلة عيد ميلاد بوريس، توماس برنهارد، تر: أحمد سخسوخ، منشورات وزارة الثقافة المصرية، القاهرة - مصر، د.ت.
 - 16- نيتشه، سلسلة خلاصة الفكر الأوربي، عبد الرحمن بدوي، نيتشه، وكالة المطبوعات، الكويت، ط5، 1975.
 - 17- هكذا تكلم زرادشت، فريدريك نيتشه، تر: علي مصباح، منشورات الجمل، بغداد-العراق، ط1، 2007.
- الدوريات:

- 1- الرواية الروسية في القرن التاسع عشر، مكارم الغمري، مجلة عالم المعرفة، الكويت، ع 40، نيسان 1981.
- 2- شوبنهاور، العالم مثل مزحة سيئة، عبد الرحمن إكيدر، مجلة فكر الثقافية، ع21، نوفمبر 2017- يناير 2018، الرياض- السعودية.

